أدونيس يستحضر المتنبي

د.ثائر زين الدين *

يقعُ المتنبي موقعاً عظيماً في نفسِ أدونيس، ولا تكاد تقرأُ عملاً نقدياً أو إبداعياً لهذا الشاعر، إلا وترى أو تحس حضوراً ما: ساطعاً أو خفيّاً لأبي الطيب، كيفَ لا و«شعرهُ كتابٌ في عظمةِ الشخصِ الإنسانيّة»[1] وهو دائماً وعلى المستوى الإبداعي «مسكونٌ بهاجسٍ وحيد: ببدايةٍ أعمق أصلاً، وبكارة أكثر عذرية»،[2] إنهُ شاعِر الحركة والحياة، «يعرفُ أنّ المكان المباشر سُرعان مايصيرُ آسناً، فالوقوفُ عندهُ دلالة العجز».[3]

وعلى المستوى الشخصي: أليسَ هناك ما يُغري شاعراً كأدونيس بأبي الطيب؟ بلى؛ إنّه التشابه الكبير - ومن وجهة نظر أدونيس- بينَهُ وبين المتنبي؛وقد رأت (أسيمة درويش)أن هناك تماثُلاً كبيراً بين سيرتيّ حياتهما، تماثلاً يبلغُ حد التطابق، على مستوى الفروع والأصول،[4] وقد وثّقت ذلك بشواهد من(الكتاب)نفسه، فلكليهما أبٌ فقيرٌ من عامة الناسِ، وقد بدأ كل منهما يكتبُ الشعر في سنوات الطفولة المبكّرة، ولكلٍ منهما لقبٌ غلبَ عليهِ وعُرِفَ بهِ، بالإضافة لغيرها من الأسباب، كل هذه الأمور وغيرها جعلت أدونيس في ديوانِهِ المعنون بـ (الكتاب)، يتخذُ من هذهِ الشخصيّة وسيلةً، وفرساً لطرحِ رؤياهِ في التاريخ العربي والإسلامي؛ وبصورةٍ ما في الذات العربيّة، من خلالِ قراءة شعريّة تاريخيّة، يستعيدُ فيها هذا التاريخ- أو الكثير منه- على ضوءِ الحاضرِ المعاش.

يقعُ(الكتاب)في ثلاثمئة وثمانين صفحة من القطع الكبير، وهو عملٌ مهمٌّ وضخم، ولا أزعمُ أنني في هذه الفقرة قادرٌ على الإحاطة بهِ، ولهذا فسأتناوله- كما يشير عنوان الفقرة ذاتها- من زاويةِ تعامِلِهِ مع شخصيّة المتنبي، ولا مفر في البداية من وصف هذا الكتاب لتسهيل تناوله.

يحملُ العملُ بالإضافة لعنوانِهِ الرئيس(الكتاب)عنواناً فرعيّاً (أمس المكان الآن)، بالإضافة لرقم (I) أسفل العنوان الفرعي، وهذا يعني أننا أمام الجزء الأول من «الكتاب»، وهو جزءٌ يتناول ماضي هذا المكان.... وحين نقرؤه؛ نجدهُ يتناول فترة طويلة من تاريخنا، تبدأ من صدر الإسلام وتنتهي بالعصر العبّاسي، وهذا يعني أن الشاعر سيتابع مشروعه ليصل إلى الحاضر، وقد يستشرف المستقبل، وعليه فسنفهم سبب تسمية هذا العمل(بالكتاب)، بما في هذهِ التسمية من رغبة في إسباغ الأهميّة والرفعة، لاسيّما أن الشاعِر يحاولُ فيهِ أن يقدّم مشروعاً فنيّاً وفكريّاً مبنياً على التاريخ.

* المدير العام للهيئة السورية للكتاب/ دمشق

يتألفُ الكتابُ من عـشرة فصول، تَدلُّ الأرقامُ الرومانيّة (I-X) على ترتيبها، ويستهلُّ الشاعِرُ ثمانية منها بشـطرٍ أو بيتٍ من شـعر المتنبي، وتفصلُ الفصـولَ السـبعة الأولى بعضها عن بعض ستةُ هوامش، وثلاث فواصل استباق.

للفصول السبعة الأولى بنية واحدة وجديدة على صعيد الشـكل؛ إن الصفحـة في هذهِ الفصول مُقسَّـمة بصورة ممتعة إلى أربع مساحات على النحو الآتي: يتوسّط الصفحة مستطيل ضلعُهُ الطويـل يمتدُّ مـن أعلى الصفحة إلى أسـفلها، ويحمـلُ المتن الشـعري الرئيـس، ولكن خطاً أفقيّاً في أسفل هذا المستطيل يجتزئُ منهُ حيّزاً صغـيراً سـيتَميزُ مِـن الجـزء الأول بنجم(*) في بدايتـه؛ يشـيرُ إلى تغـيّرُ الصوت الشـعري واختلاف المتحدّث.

القسـم الأيمن مـن الصفحة(وأحياناً السـفلي أيضـاً)، مخصصٌ لصوت الراوي، أما القسـم الأيسر فهـو دائمـاً لتوثيق مرجعيّـة الرواية. وعليـه فسـنرى أن أدونيـس يقـدّمُ لنا في كل صفحة عدّة أصوات:

- إن الجزء الأعلى من المتن الشعري يحملُ غالباً صوت المتنبي الذي يسردُ على مسـامعنا سيرة حياتِـهِ بما حملته من مُعانـاةٍ ومرارةٍ وإبداع، مُنطلقاً مـن لحظةِ الولادةِ. لكـنّ هذا الصوت يتحوّلُ فجأةً إلى صوت أدونيس:

«بيتُنـا صبـوةٌ/ تتقلبُ في جَمرهـا/ والنجومُ تجرُّ خلاخيلها حَولَهُ/مَرّةً، هبطت فيهِ جنّيـةٌ غسـلتني بأهدابهـا/ واختفتْ/ كـم تحدّثتُ عنها إلى بيتنا وتحدّثتُ عنها
لم يكن بيتُنا يعرفُ النحوَ والصرفَ لكنْ/ كل أحجاره بيانْ
مَـرّةً؛/ قال لي:/ خطواتُكَ حُبـلى بما لا يطيقُ المكانْ».[٥]

وقـد نجـدُ في مواضـع عـدة الصوتـين معـاً، ونسـتطيعُ أن نميّزَ كلاً منهمـا، لكن الصوت الأكثـر حضوراً في المتن الشـعري الرئيس هو صوتٌ يتماهى فيه الشـاعران بطريقةٍ متقنة، فلا تستطيع أن تفصل بينهما:

«زمـنٌ للسـقوط، وشـعري هَدّامُـهُ الرجيم/ المدائنُ ممهورةٌ/ بخواتِم أنقاضها
والدروبُ إلى كل أرضٍ/ وهنٌ، أو دمٌ، أوغضبْ/ وأنا لا أقصُّ الشقاءَ، وأنفرُ من وصفِهِ
زمنٌ للسـقوط، وشـعري/ كوكـبٌ يُرتقبْ/ دعوةٌ للهبوطِ/ إلى آخرِ الجحيمْ».[٦]

ونلاحـظُ أن أدونيـس يرتـدي قنـاع المتنبي- الرائي، وأدونيس يتقنُ ذلك، فقد قدّمتهُ بعضُ قصائده بصورةِ نبيٍّ أو عَرّافٍ:

«إنني نبيٌّ وشكّاك/ أعجنُ خميرة السقوط،/ أترُكُ الماضي في سقوطِهِ، وأختارُ نفسي».[٧]

وينجحُ هذا التماهي بين الشخصيتين(أدونيس والمتنبي)؛ لأسباب عدّة أهمّها ذلك الإحساسُ- مـن جانـب أدونيـس- بالتشـابه بينَـهُ وبين المتنبي، وتشـابه الحقبتين التاريخيتين والأهم من هذا وذاك هو «توافق الرمز خارج الشاعر، مع الرمـز داخله»[٨]بينمَا ظلَّ صـوتُ المتنبي صافياً في الحالات التي يتحدّث فيها عن أشياء لن تكونَ بأي شـكلٍ من الأشكال مشتركة مع أدونيس، إلا أن الثاني وفي كل الحالات سيقول المتنبـي بلغتِهِ هو وأسـلوبِهِ متكئاً عـلى فهمِهِ الذاتي لهُ ولشعرهِ.

- أما الجزء الأسـفَل من المتن الشـعري، الذي يميّزهُ أدونيس مِنْ سابِقِهِ بنجم(*) فهو جزءٌ تتعدّد فيـه الأصوات، وهو غالبـاً يأتي تعليقاً عـلى المتن الأعلى، أو نتيجةً أو تعميماً لهُ ويأخذُ

شكل الحكمة أو المُسلّمة أو القانون:
«* ابتكر كلماتٍ/ للمكان تصيرُ زماناً»[٩]
«* لا تكتبُ أرضَ الحُريّة/ إلا لغة وحشيّة».[١٠]
وقد يأتي على صيغةِ سؤالٍ من تلكَ الأسئلة الكبيرة المحيّرة.
والصوت الأكثرُ حضوراً في هذا الحيّز هو صوت أدونيس أو بعض الشخصيّات التي يروق لَهُ أنْ يتقمّصها، لكنكَ قد تقع على صوت المتنبي هنا وهناك(كما في الصفحتين ٢٢٩و٢٣٠)، وفي كل الأحوال يسعى الشاعِرُ في هذا الحيّز إلى التقاط ما هو إنساني وشامل ليضعهُ بين يدي القارئ؛ وقد مَيّزَ أدونيس هذا الجزء- وسأعدُّ ذلك ليسَ من قبيل التزيين- بأن جعلَ حجم الكلمات- طباعةً- أكبر من كلمات الجزء الأعلى من المتن، التي هي بدورها أكبر حجماً وأشد وضوحاً بالتالي من كلمات الرواة، أو من الإشارات التاريخيّة التي تثبتُ مرجعيّة كلام الرواة، وهذا يعني اختلاف أهميّة أقسام الصفحة وما تحتويه.
- الجزءُ الأيمنُ من الصفحة مخصصٌ للراوي، وهو كما يتضحُ ليسَ واحداً؛ بل رواةٌ كثيرون. في هذا الجزء يعمل هؤلاء على إضاءة المكان، الذي سيولدُ فيه المتنبي، وسيتابعونَهُ من سنة(١١) هجريّة إلى نهاية العصر العبّاسي ونشوء الدويلات.
- تفصلُ بين الفصول السبعة الأولى من الكتاب(المخطوطة التي كتبها المتنبي وحققها أدونيس)ستة هوامش، وثلاث فواصل استباق، أما الهوامش فهي بطاقات، حملت كل بطاقة، اسم شاعِر من الشعراء العرب، وقدّمتهُ للقارئ بصوتِهِ الشخصي، وأحياناً بصوت آخر، يروقُ لي أن أعتبرهُ صوت المتنبي؛ بمعنى أن المتنبي كان قد قرأ هؤلاء الشعراء، وقدّمهم من وجهةِ نظرهِ الشخصيّة؛ وإلا فما سبب وجودهم في مخطوطة كتبها المتنبي؟!
لقد قدّمتْ لنا هذهِ الهوامش ثمانية وخمسين شاعِراً، عاشوا في أزمنةٍ مختلفة من الجاهليّة حتى العصر العباسي.
- أما فواصل الاستباق فهي فصول صغيرة، يُبدي فيها أدونيس(الشخص الذي يحقق المخطوطة) رأيه ببعضِ ما قرأه؛ وما يتوقعه؛ ويأتي هذا الرأي غير بعيدٍ عمَّا جاءَ في المخطوطة وبنثره الخاص.
- الفصل الثامن يحملُ عنوان: الأوراق(أوراقٌ عُثَرَ عليها في أوقات متباعدة ألحقتْ بالمخطوطة)؛ وهي مقاطع مُرقّمة بالأرقام الرومانيّة، ويتعامل أدونيس فيها مع المتنبي بطريقةِ القناع، وهي من أنجح فصول الكتاب؛ وإن كنّا في مقاطع كثيرة نسمَعُ كلام المتنبي القديم بصيغةِ جديدة:
«أهو شرٌ، إذا قلتُ: هذي المدائنُ مُنْحلَةٌ/ تتهلهلُ مأسورةً
في حصون- صحارى/ من دم واقتتالْ؟/ أهو شرٌّ، إذا قلتُ:/ لا تكترث، لا تُبالِ؟».[١١]
ففي هذا النص، اتكاءٌ موفّق على قول المتنبي: «لا تلقَ دهركَ إلا غيرَ مكترثٍ...»، وقد يقذف أدونيس قناع المتنبي جانباً ويُنشِد بصوتِ راوٍ بعيد:
«قلقٌ راسبٌ -عائِمُ / هو ذا طقسُهُ الدائم».[١٢]
وهو هنا يتكئُ بشكل أقل نجاحاً على قول المتنبي:»على قلق كأنّ الريحَ تحتي.....».
- الفصل التاسع يحملُ عنوان «الفوات فيما سبقَ من صفحات»، وهو فصلٌ جديدٌ لأصواتِ الرواة؛ حيثُ يلقونَ على أسماعِنا، مافاتهم

ذكره، في الفصول الأولى من أحداثِ القتلِ؛ فها هـو ذا أحدُ الـرواةِ يُحدّثنا عن حـوارٍ دارَ بين الحجّاج وهمدان مؤذّن الإمام علي:

«راوٍ آخـر يروي:/ - إن كنـتَ بريئاً،/ فلماذا لا تبرأ منه؟

- لا أتـبرأُ ممّن أدّبني، وتتلمذتُ عليهِ/ - قم يا حَرَسي/واقطع رأسهْ».[١٣]

- الفصـل العـاشر بعنوان «توقيعـات» ويبدأ ببيت المتنبي:

إذا ما تأملت الزمان وصرفه

تيقنت أن الموت نوع من القتل

وهو فصلٌ قصير، ولكنهُ يكاد يضعُ بين أيدينا أجوبةً لكثيرٍ من الأسئلة التي ثارت في الأذهان في الفصـولِ السـابقة، لنقرأ مثـلاً من مقطع بعنوان «توقيع منفرد»:

«مـاذا تفعـل يا هـذا الشـاعرْ/ في هـذا البلد البائرْ؟/- أشهدُ فيهِ

تكويـن بلادٍ أخـرى./ - مـاذا تفعـل يا هذا الراوي/ في هذا التاريخ الميت؟

- أشهدُ فيهِ/ ميلاداً آخر/ لتواريخ أخرى».[١٤]

وتُـسَرُّ حينَ تقرأُ في القصيـدةِ التّالية ما تقولُهُ الشـمسُ بمـا تعنيـهِ الشـمس مـن مدلولاتٍ للراوية:

«هي ذي الشـمسُ تهمـسُ للراويـهْ/ وتكررُ مزهوّةً:

حكمـةُ الضوءِ أبقى وأعمـقُ من ليلِ صحرائكِ الداميهْ».[١٥]

أمـا لمـاذا الـسرور؟ فلأنَ هـذهِ العبـارة، هي إحـدى النقـاط القليلـة جـداً، التـي تبعثُ في نفـسِ القـارىء شـيئاً مـن الأمـل، بالإضافة لثلاثـة مواقف مضيئة وفي منتهى الإنسـانية، رواها الراوي عن علي بـن أبي طالب كرّم الله وجهه(ص٥٦)، والحسـن بن عـلي، وعمر بن عبد العزيز(ص١٩٤-١٩٧).

وعليـهِ وانطلاقاً مما سـبقَ أضَـعُ الملاحظاتِ المختصرة الآتية على العمل:

- لقد تضافرت كل الأصوات في الكتاب(الرواة- المتنبي-أدونيس- وغيرهم)، وقدّمت على امتداد ثلاثمئة وثمانين صفحة، رؤيا كابوسيّة سوداء لتاريخنـا مـن الجاهليـة حتى نهايـة العصر العبّـاسي، مُركّزةً الضوء على مقتل علي بن أبي طالب وسـلالته وصحبـه، وإذا كان أدونيس يرمي من خلالِ ذلك إلى الكشـفِ عن التضليل التاريخي الذي مارسـتهُ، وتمارسُهُ المؤسسات التعليميّة والتربويّة في العالم العربي برمّتهِ».[١٦]

- كما يقول أحد دارسيهِ- فإن أدونيس يقترفُ الخطـأ نفسـه، ويقـدّمُ جانباً واحـداً من هذا التاريخ، بل يراهُ من زاوية ضيقة جداً.

إنك لتسـتغرب أن أصوات الرواة التي ترسـم خلفية المشـهد، وتـضيءُ شـخصيّة المتنبي، لا تقعُ على شيءٍ مضيءٍ في محيطهِ كلّه، سـاهَمَ في تكوينِهِ، علماً أن القـرن الرابع الهجري، الذي ولَدَ فيه المتنبي(٣٠٣ هـ - ٩١٥م). كانَ يشكّل ذروة الحضـارة العربيّـة من زاويـةِ الازدهار الفكري والعلمي والتطـوّر الثقافي العام، وإن كان الوضع السياسي خلاف ذلك.

- جـاءَ كلامُ الـرواة لا يحمـل من الشـعر إلا الـوزن- وحـين نتذكّر أن أدونيس ميّـزَ دائماً بين الشـعر، والنظم؛ فسنتسـاءَل: لمـاذا يُقدِمُ على ذلك؟ أما كان من الأفضل أن يتحدّث هؤلاء نثراً؟! إن مفرداتهم كلها نكادُ نُحصيها ببضع عشرات أهمّها:(قَتَـلَ، حَرَقَ، ذبحَ، حَزّ، صَلَب، بَتَرَ، رمح، سيف، رأس، رجل، طفل، امرأة).

- تأتي هوامشُ الفصول الخمسة الأولى كيفما

اتفـق، دون ناظـم ينظمها، فقد تجد هامشـاً لأبي محجن يتلو هامشاً لامرئ القيس، والأهم من ذلك أن الكثير من هذهِ الهوامش لا تضيفُ شـيئاً إلى الحكاية التاريخيّـة لصاحبها، كأنّ يقول في هامش بعنوان «العَرْجيّ»:

«قيّدوهُ، وأُلقيَ في السـجنِ تسـعَ سـنينٍ، ماتَ فيهِ. رووا أنّه كان شخصاً كريماً وفارساً بـين أفضـل مـن أنجبتهـم قُريشٌ/ قـالَ في سجنهِ:/ (أضاعوني، وأي فتىً أضاعوا).

قـبرهُ- مطرٌ نـازلٌ فوقَـهُ / يتدفّقُ مـن سُرّةِ الغيومِ...».[١٧]

وقد تجـد أن بإمكانـك إبـدال عناوين بعض الهوامـش بغيرها، دونَ أن تُلحِقَ أذىً بالنص، كالهامش الذي عنوانُـهُ «المهلهل التغلبي»؛[١٨] فقد أضعُ لَهُ- مـن التاريخِ العربي- العناوين الآتية:(زيد الخيل)، أو (عمرو بن معد يكرب)، أو (ذو الإصبـع العدواني)، من دونَ أن يُسيءَ ذلك إليه.

وقد يُجيدُ الشاعِر في عددٍ غير قليل من هوامِشِهِ مثل: المتلمّس وعوف بن الأحوص وعمر بن أبي ربيعة وغيرها، لكـن الأهم من كل ذلك؛ هو أن هذهِ الهوامِش الكثـيرة زائدة، وعلاقتها واهية بفصول الكتاب الأساسـيّة، حتى ولو افترضنا أن المتنبـي هـو الـذي يقـرأ هـؤلاء الشـعراء بطريقتـهِ، ذلـك أن هـذهِ القراءة لم تسـتطع إلا فيما ندر أن تقدّم شـيئاً جديـداً جمالياً أو فكريّاً؛ وكأن الشـاعر لم يطمـح هنا إلا للعبِ دور المؤرّخ الأدبي.

- يعـود أدونيس في هذا العمـل إلى الكثير من الشخصيات، التُراثية التي كان قد استحضرها سـابقاً، واسـتلهمها في أعمالهِ، مثـل: علي بن أبي طالب، والحسـن والحسـين وزيد بن علي، ومعاوية، وعمر بـن الخطاب، ووضاح اليمن، والحجّاج وغيرهـم».[١٩] علمـاً أن معظم هذهِ الأسماء قد استُهلِكَ من قبل أدونيس وغيره من الشعراء، وصار على الشاعِر أن يتوخّى الحذر في التعامل معها؛ فإن هو لم يستطع أن يخرج بهـا إلى أجـواء جديدة، ولم يسـتطع أن يراها بعين مختلفة، وشـديدة الحساسـيّة؛ فأولى بهِ أن يبتعدِ عنها.

- استهلَّ أدونيس معظمَ فصول الكتاب بشيءٍ من شـعر المتنبي، لكن هذا الاستهلال لم يكن موفّقاً دائماً، وكان قريبـاً من التزيين أحياناً ، ولنرى المثالين الآتيين:

يستهلِ الشاعِر الفصل الثالث بقول المتنبي: «إنَ النفيس غريبٌ حيثما كانا»، والفصل الرابع بقولِهِ: «كأني عجيبٌ في عيون العجائب»، وحينَ تقرأ هذين الفصلين ستكتشف أن بإمكانكَ أن تستبدلَ الشطر الأول بالثاني، أو العكس ولن يغيّر هذا الأمر شيئاً، ويمكن أن تُجري العملية نفسها لكل من الفصل الخامس الذي يستهلّهُ أدونيس بقول المتنبي:

شيم الليالي أن تشكك ناقتي صدري بها أفضى أم البيداء

والفصل السـادس الـذي يسـتهلّهُ بقول أبي الطيب: «وجبتُ هجيراً يتركُ الماءَ صادياً».

- وأخيراً؛ لقد ناءَ الشعرُ بحمل التاريخِ في عديدٍ من مواضع الكتاب، خاصةً في صفحاتِ الرواة؛ الذين قدّموا لنا ما يشبه المعجم بأسماء القتلى وأسـاليب القتل في التاريخ العربي الإسـلامي، بينما اسـتطاع صوت المتنبي وصوت أدونيس أن ينجوا من ذلك في معظم المواضع.

الهوامش

(١) أدونيس، مقدمة للشعر العربي، (مصدر سابق)، ص٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٤) أسـيمة درويش، قراءة أولى لـ (الكتاب) الأدونيسي، مجلّة أبواب، العدد ٢، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه، ص١٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٧) أدونيـس، الأعمـال الكاملـة، المجلـد الأول، ط٥، بيروت، دار العودة، ١٩٨٨، ص٢٧٨.

(٨) أحمد بسام ساعي، (مصدر سابق)، ص ٣٤٥.

(٩) أدونيس، الكتاب، ص ١٩٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص١٦٤.

(١١) المصدر نفسه، ص٣١٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص٣١٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص٣٤٨.

(١٤) المصدر نفسه، ص٣٧٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص٣٧٨.

(١٦) أسيمة درويش، (مصدر سابق)، ص١٧٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص٢٢٢.

(١٨) المصدر نفسه، ص٨٨.

(١٩) راجع على سـبيل المثال الصفحـات (٧٤-٨٢-٨٦-١٧٩-١٨٣) من الأعمال الكاملة لأدونيس، المجلد الثاني، ط٥)، بيروت، دار العودة، ١٩٨٨.

ما تكون خصوصية العربي, إذن- وما يكون شـكل ارتباطه بما نسـميه التراث؟ إن خصوصية العربـي ليسـت, كمـا يبدو لي, في ما يمّيـزه عن العالم وإنمـا هي في ما يمّيزه, لحظة يشـارك, بطاقاتـه كلها, في صنع العالم. أما من ناحية الارتباط بالتراث, فيجب أن يكون مع التحول: مع عنـاصره الأولى وآفاقـه. ولكن هذه العنـاصر لا قيمة لها من حيث أنها مـاضٍ, وإنما قيمتها في كونها تختزن طاقة على إضاءة المستقبل, أي في مدى قدرتها على أن تكون جزءاً من المستقبل.

(الثابت والمتحول ج١ص٦٥)